صورة المحارب المغولي في المصادر المملوكية من الوحشية إلى الأسطرة (658–803هـ)

م. م. ايمان عباس علي حسين
وزارة التربية / المديرية العامة لتربية المثنى

الملخص

يتناول هذا البحث صورة المحارب المغولي في المصادر المملوكية خلال المدة الممتدة من معركة عين جالوت سنة 658هـ إلى اجتياح تيمور لبلاد الشام سنة 803هـ، بوصفها صورة تاريخية مركبة تشكلت في سياق الحرب والتنافس السياسي وبناء الشرعية السلطانية، ولا تقتصر الدراسة على سرد المواجهات العسكرية، بل تتجه إلى تحليل الألفاظ والنعوت والبنى السردية التي استخدمها المؤرخون في تصوير المحارب المغولي، منذ مرحلة الرعب المرتبطة بسقوط بغداد واجتياح الشام، مروراً بعين جالوت وحمص ووادي الخزندار وشقحب، وانتهاءً بحملة تيمور، وتكشف الدراسة أن صورة المغولي انتقلت من نموذج العدو الكاسر الذي بدا عصياً على المقاومة، إلى خصم يمكن إخضاعه وهزيمته، ثم أصبح وجوده عنصراً مهماً في صناعة البطولة المملوكية، غير أن هذا التحول لم يكن خطياً، إذ أعادت هزيمة المماليك في وادي الخزندار، ثم اجتياح تيمور، تنشيط خطاب الرعب القديم، كما تبين المصادر وجود تمييز بين مغول الإيلخانية المعادين، ومغول القبيلة الذهبية المتحالفين، والوافدية من ذوي الأصل المغولي، مما يدل على أن صورة المحارب المغولي كانت سياسية وذاكراتية متغيرة أكثر من كونها حكماً عرقياً ثابتاً.

الكلمات المفتاحية: المغول، المماليك، عين جالوت، شقحب، تيمور.

The Image of the Mongol Warrior in Mamluk Sources: From Brutality to Mythologization (658–803 AH)

Assistant Lecturer Shaimaa Abbas Ali Hussein
Ministry of Education / General Directorate of Education in Al-Muthanna

Abstract

This study examines the image of the Mongol warrior in Mamluk sources during the period extending from the Battle of Ain Jalut in 658 AH to Timur's invasion of Syria in 803 AH. It approaches this image as a complex historical construct shaped by warfare, political rivalry, and the formation of sultanic legitimacy. Rather than merely recounting military confrontations, the study analyzes the vocabulary, epithets, and narrative structures employed by historians in their representations of the Mongol warrior, beginning with the phase of terror associated with the fall of Baghdad and the invasion of Syria, passing through the battles of Ain Jalut, Homs, Wadi al-Khazandar, and Shaqhab, and concluding with Timur's campaign.

The study reveals that the image of the Mongol shifted from that of an overwhelming enemy who initially appeared impossible to resist to that of an adversary who could be confronted, subdued, and defeated. Subsequently, the Mongol presence became an important element in the construction of Mamluk heroism. This transformation, however, was not linear. The Mamluk defeat at Wadi al-Khazandar, followed later by Timur's invasion, revived earlier narratives of fear and terror. The sources also distinguish between the hostile Ilkhanid Mongols, the allied Mongols of the Golden Horde, and the Wafidiyya of Mongol origin. This distinction indicates that the image of the Mongol warrior was politically conditioned and shaped by changing collective memory rather than representing a fixed ethnic judgment.

Keywords: Mongols, Mamluks, Ain Jalut, Shaqhab, Timur.

المقدمة

مثّل الظهور المغولي في المشرق الإسلامي خلال القرن السابع الهجري تحوّلاً شديد الأثر في البنية السياسية والعسكرية للمنطقة، فلم يكن التوسع المغولي مجرد سلسلة

من الحروب الحدودية أو انتقال للسلطة من أسرة إلى أخرى، بل اقترن في الوعي الإسلامي بانهيار مدن ودول ومراكز حضارية ظلت قروناً جزءاً من النظام السياسي للمشرق، ومع سقوط بغداد سنة 656هـ ومقتل الخليفة العباسي المستعصم تضاعفت الصدمة، وتحول اسم المغول في جانب كبير من الكتابة التاريخية إلى قرين للغلبة السريعة والقتل والسبي وتهديد العمران.

وقد ورثت السلطنة المملوكية هذه الذاكرة وهي في طور تثبيت أركانها، لذلك لم يكن المحارب المغولي، في نظر أهل مصر والشام، خصماً عسكرياً مجهولاً يمكن التعرف إليه لأول مرة في ساحة القتال، بل سبقته أخبار خراسان وبغداد وحلب وغيرها من المدن، ومن هنا كان الخوف منه يتشكل قبل اللقاء المباشر، وكانت شهرته القتالية جزءاً من قوته، لأن الأخبار المتداولة عن الجيوش المغولية أسهمت في رسم صورة نفسية تجعل مجرد اقترابها من المدن سبباً للاضطراب والفرار.

غير أن معركة عين جالوت سنة 658هـ فرضت تحولاً أساسياً في هذه الصورة، فالجيش الذي بدا قبيل المعركة امتداداً لقوة هولاكو التي اجتاحت العراق والشام تعرض لهزيمة حاسمة، وقُتل قائده كتبغا، واستعاد المماليك السيطرة على بلاد الشام، وبذلك تغيرت صورة المغولي من قوة تكاد تُرى خارج إمكان المقاومة إلى خصم شديد يمكن هزيمته، ولم يؤد هذا التحول إلى التقليل من خطورته، بل أدى، على العكس، إلى الاحتفاظ بقوته داخل الذاكرة حتى يصبح الانتصار المملوكي عليه أكثر قيمة.

وتتمثل إشكالية البحث في تتبع المسافة بين صورة «المحارب الوحشي» وصورة «المحارب الأسطوري»، والمقصود بالأسطرة هنا ليس اختلاق الوقائع أو نفي حقيقة العنف الذي رافق الغزو، بل انتقال الحدث العسكري إلى مستوى رمزي تصبح فيه قوة المحارب المغولي جزءاً من صناعة بطولة خصمه المملوكي، فكلما كان العدو مخيفاً وقوياً ارتفعت مكانة السلطان أو الأمير الذي يهزمه، ومن ثم غدت صورة المغولي وصورة المملوكي متداخلتين في صناعة الذاكرة.

وتزداد المسألة تعقيداً لأن المصادر المملوكية لم تستخدم مفهومي «المغول» و«التتار» للدلالة على كتلة سياسية واحدة على الدوام، فمغول الإيلخانية الذين خاضوا الحروب ضد المماليك لم يُنظر إليهم بالطريقة نفسها التي نُظر بها إلى مغول القبيلة الذهبية المتحالفين مع السلطنة، كما أن الوافدين من أصول مغولية استطاعوا الدخول في الجيش والمجتمع المملوكيين، ومن ثم لا يمكن تفسير صورة المحارب المغولي بوصفها موقفاً إثنياً ثابتاً، بل يجب ربطها بالموقع السياسي والديني والعسكري للجماعة التي يتحدث عنها المؤرخ.

واعتمد البحث المنهج التاريخي التحليلي المقارن، من خلال قراءة عدد من المصادر المملوكية المعاصرة أو القريبة من الأحداث، إلى جانب مؤلفات لاحقة أعادت إنتاج الوقائع في إطار ذاكرة الدولة، كما جرى الاهتمام بالمفردات والصور التي استخدمها المؤرخون، وبالمقارنة بين أخبار الانتصار والهزيمة، وبين تصوير القادة المغول وتصوير خصومهم المماليك، بغرض الكشف عن الطريقة التي يتحول بها الحدث العسكري إلى سردية سياسية وذاكراتية.

ويبدأ الإطار الزمني سنة 658هـ، لما تمثله عين جالوت من تحول في صورة المغول والمماليك معاً، وينتهي سنة 803هـ مع اجتياح تيمور لبلاد الشام، حيث عادت إلى الواجهة لغة الخوف والخراب المرتبطة بالغزوات القادمة من الشرق، وقد قُسم البحث إلى مبحثين، يتناول الأول تشكل صورة المحارب المغولي بين الرعب العسكري وكسر الهيبة، بينما يعالج الثاني انتقال هذه الصورة إلى الأسطرة السياسية والذاكراتية، مع الوقوف عند غازان ووادي الخزندار وشقحب وتيمور.

المبحث الأول
تشكّل صورة المحارب المغولي بين الرعب العسكري وكسر الهيبة

دخل المماليك صراعهم مع المغول وهم يحملون معرفة سابقة بقدرتهم العسكرية، إذ سبقت قيام السلطنة أخبار اجتياحات جنكيز خان وخلفائه للمناطق الإسلامية الشرقية، ثم جاءت كارثة بغداد لتجعل الخطر أكثر قرباً، أعقبها دخول قوات هولاكو إلى الشام، وفإن صورة المحارب المغولي في سنة 658هـ لم تكن وليدة عين جالوت، بل كانت نتيجة ذاكرة تراكمية من الخوف والسمعة العسكرية والأخبار المتناقلة، وهو ما يفسر أن كسر هذه الصورة احتاج إلى أكثر من انتصار واحد، وإلى عقود من الصدام المتكرر الذي حوّل المغول تدريجياً من قوة مجهولة إلى خصم مألوف عسكرياً وسياسياً.

المطلب الأول: المحارب المغولي بوصفه تجسيداً للوحشية والتهديد الوجودي

أولاً: ذاكرة الاجتياح وبناء صورة العدو الكاسر

سبقت الصورة الكارثية للمغول قيام الدولة المملوكية، ويكفي النظر إلى موقف ابن الأثير من أخبار اجتياحهم حتى يظهر مقدار الصدمة التي أصابت المؤرخ المسلم، إذ يصرح: «لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها»، وهي عبارة تكشف أن الحدث تجاوز في ثقله مجرد تسجيل وقائع حرب، وصار المؤرخ نفسه متردداً في تدوينه، وكأن الكتابة عنه إعادة لإحياء تجربة مؤلمة، ومن ثم انتقلت هذه الذاكرة إلى الأجيال اللاحقة بوصفها شهادة على حدث استثنائي في حجمه وتأثيره (ابن الأثير، 1965، ص358).

ويصف ابن الأثير ما جرى بعبارة أخرى أكثر دلالة حين يسميه «الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى»، وفي هذا التعبير تتضح عملية مبكرة في تشكيل صورة المغولي، إذ لا يظهر بوصفه فارساً ينتمي إلى جيش من جيوش العصر، وإنما بوصفه فاعلاً في كارثة تاريخية كبرى، وقد ساعدت هذه الطريقة في الكتابة على ترسيخ صورة المحارب المغولي داخل المخيال الإسلامي باعتباره مرتبطاً بالموت الجماعي وانهيار المدن وزوال الدول، وهي صورة ستجد طريقها لاحقاً إلى البيئة التي نشأت فيها الدولة المملوكية (ابن الأثير، 1965، ص358).

ومع سقوط بغداد سنة 656هـ لم تعد أخبار المغول متصلة بمناطق بعيدة عن المركز السياسي الإسلامي، فقد أُسقطت الخلافة العباسية في عاصمتها، وتحول انتصار هولاكو إلى حدث ذي قيمة رمزية استثنائية. ثم ازداد أثر الصدمة مع توجه المغول نحو الشام، فأصبحت حلب ودمشق في دائرة الخطر المباشر، وتكررت في الأخبار إشارات القتل والسبي والنهب، وهي مفردات أسهمت في بناء صورة المحارب الذي لا يقف عند حدود النصر العسكري، بل يمتد أثره إلى المجتمع والعمران (النويري، 2004، ص383).

وفي روايات سنة 658هـ تظهر خطورة الوضع بجلاء، إذ كان الجيش المغولي قد بلغ مناطق متقدمة من فلسطين، وأصبح الطريق إلى مصر موضوعاً واقعياً في الحسابات العسكرية، ويشير ابن كثير إلى اتساع مجال الغزو بقوله: «قد نهبوا البلاد كلها حتى وصلوا إلى غزة»، وهي عبارة تختصر جغرافية واسعة في حركة مستمرة للسيطرة والنهب، كما تكشف أن القرار المملوكي بالمواجهة اتُخذ في ظل تصور للخصم لم يكن بسيطاً، بل كان محملاً بخبرات الرعب السابقة (ابن كثير، 1998، ص400).

وإلى جانب العنف، لعبت سرعة الحركة دوراً أساسياً في بناء صورة المحارب المغولي، فقد أتاحت الطبيعة الفروسية للجيش المغولي قطع مسافات واسعة والمناورة والانسحاب والعودة بسرعة، وأسهمت مهارات الرمي من ظهور الخيل والتنظيم المرن في زيادة خطورته، ومن هنا لم تكن عبارة «هيبة المغول» مجرد صورة أدبية، بل كانت مرتبطة بإمكانات عسكرية حقيقية جعلت أخبارهم تصل إلى بعض المدن قبل وصول طلائعهم، فتؤثر في معنويات السكان والجيوش (مورغان، 2007، ص89).

وتكشف المصادر أيضاً ميلاً إلى تصوير الجيش المغولي بوصفه كتلة واحدة، فترد عبارات «التتار» و«العساكر» و«القوم» أكثر مما تظهر أسماء الأفراد العاديين، وبذلك تختفي شخصية المقاتل الفرد خلف صورة الجماعة الجارفة، ولا يخرج عن ذلك إلا القادة الكبار، حيث تتحول شخصية القائد إلى رمز للجيش كله، كما حدث مع كتبغا الذي أصبح مقتله في عين جالوت أكثر من مجرد مصرع قائد، إذ مثّل سقوطاً رمزياً لهيبة الجيش الذي قاده (أميتاي، 2007، ص224).

ثانياً: الوحشية وخطاب الشرعية المملوكية

نشأت السلطنة المملوكية في ظرف سياسي جعل مسألة الشرعية بالغة الأهمية، فالسلاطين الأوائل لم ينحدروا من أسرة ملكية ذات نسب قديم، بل كانوا نتاجاً للمؤسسة العسكرية، الأمر الذي جعل نجاحهم في حماية مصر والشام مورداً أساسياً لتثبيت سلطتهم، وفي هذا السياق كان وجود عدو بالغ الخطورة مثل المغول فرصة لإعادة تعريف الحكم على أساس القدرة على الدفاع، فكلما ازدادت فظاعة صورة الغزو ازدادت أهمية الدولة التي تقف في طريقه (إروين، 1986، ص42).

ولذلك حضرت اللغة الدينية بقوة في تصوير المواجهة، إذ لم يكن القتال يقدم دائماً باعتباره نزاعاً على حدود سياسية، بل كثيراً ما ارتبط بالدفاع عن الإسلام والبلاد والسكان، ومن هذا المنظور كانت صورة المحارب المغولي المدمّر تقابلها صورة السلطان المملوكي الحامي، فتحولت القدرة العسكرية إلى أساس من أسس الشرعية، لا سيما في دولة حديثة العهد بالحكم وتحتاج إلى خطاب يربط وجودها بأمن المجتمع (برودبريدج، 2008، ص29).

ويتجسد هذا البناء بوضوح في الرواية المتعلقة بقطز في عين جالوت، إذ يذكر النويري أن السلطان لما اشتد القتال «رمى خوذته عن رأسه، وصاح: وا إسلاماه»، ثم اندفع إلى المعركة، وتكمن أهمية هذه العبارة في أن السلطان لا يظهر فيها بوصفه قائداً يدافع عن عرشه فحسب، بل بوصفه حامياً

لجماعة أوسع، ولذلك يصبح المحارب المغولي، في المقابل، عاملاً يدفع السرد إلى إنتاج صورة مثالية للحاكم الذي يقدم نفسه في لحظة الخطر (النويري، 2004، ص391).

ومع اعتناق غازان الإسلام في أواخر القرن السابع الهجري تعرض هذا البناء لاختبار جديد، لأن الخصم المغولي لم يعد يمكن تقديمه ببساطة باعتباره حاكماً غير مسلم، إلا أن المصادر المملوكية أعادت توجيه خطابها نحو أفعال الجيش واستمرار الغزو والاعتداء على بلاد المسلمين، فضلاً عن الحديث عن التقاليد المغولية والياسا، وهكذا استمرت صورة العدو ولكن على أساس سياسي وفقهي أكثر تعقيداً (أميتاي-بريس، 1996، ص5).

وتتضح مرونة الصورة أكثر عند المقارنة بين الإيلخانيين والقبيلة الذهبية، فقد كان بركة خان وخلفاؤه من المغول أيضاً، لكن تحالفهم مع السلطنة وعداءهم لهولاكو جعلا موقعهم مختلفاً في الخطاب المملوكي، وهذا الاختلاف يكشف أن مفردات الوحشية لم تكن حكماً ثابتاً على الأصل المغولي، وإنما ارتبطت إلى حد بعيد بالعلاقة السياسية وبموقع الجماعة من شبكة الحرب والتحالف (فان دن بنت، 2020، ص184).

وتؤكد ظاهرة الوافدية المعنى نفسه، فقد دخلت جماعات من أصول مغولية إلى مصر والشام والتحقت بالدولة المملوكية، واستطاع بعض أفرادها الوصول إلى مراتب عسكرية مرموقة، وهكذا كان المحارب الذي ينتمي إلى عالم المغول قادراً على التحول، بمجرد انتقال ولائه وانخراطه في المؤسسة الجديدة، من عنصر في جماعة معادية إلى عضو في المجتمع العسكري المملوكي، وهو ما يضعف أي تفسير عرقي جامد للصورة (أميتاي، 2008، ص126).

ومن ثم فإن صورة «المحارب الوحشي» لم تكن مجرد اختراع دعائي، كما لم تكن وصفاً محايداً لطبيعة جماعة بشرية، وإنما تكونت من تفاعل خبرة واقعية بالعنف مع حاجة سياسية إلى تعريف العدو وتثبيت شرعية المدافع، وبقدر ما خلّفت الاجتياحات مآسي حقيقية، أتاح استحضارها للدولة المملوكية أن تقدم نفسها في صورة الحاجز الذي يوقف تكرارها.

المطلب الثاني: عين جالوت والانتصارات اللاحقة وإعادة صياغة صورة المحارب المغولي

أولاً: عين جالوت وكسر صورة الخصم الذي لا يُهزم

مثلت عين جالوت سنة 658هـ نقطة مفصلية في تطور الصورة، ليس لأن المغول لم يتعرضوا لهزائم قبلها، بل لأن المعركة وقعت في قلب المجال الذي أصبحت السلطنة المملوكية مسؤولة عن الدفاع عنه، وبعد سقوط بغداد واجتياح الشام مباشرة، ولهذا كان للنصر أثر نفسي واسع، ويشير ابن كثير إلى سرعة انتشار البشارة بقوله: «فما مضت سوى ثلاثة أيام حتى جاءت البشارة بنصرة المسلمين»، وهي عبارة تعكس أن النصر كان حدثاً اجتماعياً انتظره السكان بقدر ما كان حدثاً عسكرياً (ابن كثير، 1998، ص400).

وحفظ العيني عن أبي شامة وصفاً بالغ الأهمية لأثر النتيجة، إذ يقول: «ومن العجائب أن التتار كسروا وهلكوا بأبناء جنسهم من الترك»، وتكشف هذه العبارة عن وعي معاصر بوجود تقارب بين البيئتين العسكرية والبشرية للمماليك والمغول، فلا يرسم أبو شامة خطاً عرقياً بسيطاً بين عالمين منفصلين، بل يرى المفارقة في أن تنتهي هيبة التتار على يد مقاتلين خرجوا من فضاءات سهبية وتركية قريبة من عالمهم (العيني، 2010، ص249).

ويصف النويري حدة القتال بقوله: «فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم التتار وأخذهم السيف والأسار»، وتكتسب العبارة أهميتها من أن الانتصار لم يصور على أنه سهل أو طبيعي، بل سبقته مواجهة عنيفة، وبذلك حافظ النص على قوة الخصم وهو يسجل هزيمته، وهذه الطريقة في البناء السردي كانت أساسية في الانتقال إلى الأسطرة، لأن قيمة البطولة المملوكية ترتفع كلما ظهر العدو قوياً قبل انكساره (النويري، 2004، ص391).

وفي قلب هذا التحول يقف مقتل كتبغا، فقد أصبح قائد الجيش رمزاً للقوة المغولية في الشام، ولذلك كان مصرعه علامة تتجاوز شخصه، ويذكر الذهبي أن «قتل كتبغا ومعظم أعيان التتار»، وهي صياغة تجمع بين سقوط القائد وانهيار جزء مهم من نخبة الجيش، فتجعل النصر ذا ملامح واضحة يمكن للذاكرة التاريخية أن تختزل فيها تحول ميزان القوة (الذهبي، 1998، ص62).

ومع ذلك لم تحاول الروايات جميعها تحويل كتبغا إلى شخصية ضعيفة، بل ظل في بعضها مقاتلاً ثابتاً شديداً، وهو أمر يبدو لأول وهلة متناقضاً مع رغبة المصادر في تمجيد النصر، لكنه يؤدي في الواقع وظيفة معاكسة، لأن الخصم الشجاع يمنح قاتله مكانة أعلى من الخصم الجبان، وبذلك دخلت بعض عناصر الفروسية المغولية نفسها في بناء بطولة المماليك (أميتاي، 2007، ص229).

كما تغيرت دلالة كلمة «التتار» في الوعي الشامي بعد المعركة، إذ أصبح ممكناً ربطها بالهزيمة والانكسار بعد أن كانت مرتبطة في الأخبار السابقة بالغلبة والاقتحام، ومع

مرور الزمن تحولت عين جالوت إلى جزء من الذاكرة المؤسسة للدولة، واستعادها المؤرخون المتأخرون بوصفها الحدث الذي وضع حداً لمرحلة من الخوف وأثبت قدرة السلطنة الجديدة على تولي الدفاع عن المنطقة (ابن تغري بردي، 1935، ص81).

ثانياً: من عين جالوت إلى حمص وتثبيت التفوق المملوكي

لم تنهِ عين جالوت الحرب بين المماليك والإيلخانية، بل بدأت بعدها مرحلة طويلة من الغارات والمراسلات والحملات العسكرية، ومن ثم لم يكن ممكناً بناء صورة جديدة للمغول على نتيجة معركة واحدة، فالدولة احتاجت إلى اختبار قدرتها مراراً، وفي عهد الظاهر بيبرس دخلت مواجهة المغول في صميم سياسة السلطنة، من خلال تنظيم البريد والاستطلاع والتحالفات والاهتمام المستمر بالحدود الشمالية والشرقية (أميتاي، 1990، ص13).

وفي الوقت نفسه تكشف المراسلات بين الطرفين أن صورة العدو في الدبلوماسية كانت أكثر تعقيداً من الصورة التعبوية، فقد جرت مخاطبة الحكام الإيلخانيين بوصفهم أصحاب سلطة يمكن التفاوض معهم وتهديدهم ومساومتهم، وهذا يبين أن النخبة السياسية المملوكية لم تكن أسيرة صورة «الوحش» وحدها، بل كانت تتعامل مع المغول بعقلانية سياسية حين تقتضي المصلحة ذلك (ابن عبد الظاهر، 1976، ص207).

ثم جاءت معركة حمص سنة 680هـ لتمنح عهد قلاوون انتصاراً مهماً على حملة مغولية كبيرة، فأثبتت أن عين جالوت ليست حادثاً استثنائياً لا يتكرر، وبذلك بدأت المؤسسة العسكرية المملوكية تكتسب ثقة أكثر رسوخاً في قدرتها على مواجهة الإيلخانيين، وأصبح الانتصار على المغول جزءاً من سجل الدولة العسكري، لا ذكرى منفردة ترجع إلى عهد قطز (أميتاي-بريس، 1995، ص203).

ومن هنا أخذ المحارب المغولي يتحول إلى «خصم معياري» تُقاس أمامه كفاءة السلطان والأمراء، فالاستعداد لحملاته، وحماية الثغور، والمشاركة في المواجهات ضده، أصبحت عناصر مهمة في سيرة القادة المماليك، كما صار نجاح السلطان في رد الغزو دليلاً على فعالية حكمه وقدرته على إدارة الموارد العسكرية للدولة (نورثرب، 1998، ص207).

غير أن هذا الصراع العسكري كان يترافق مع حركة انتقال بشري بين العالمين، إذ انضم بعض ذوي الأصل المغولي إلى السلطنة، واستفاد المماليك من خبراتهم العسكرية، وتكشف هذه الظاهرة أن الحدود السياسية لم تكن حدوداً حضارية مغلقة، وأن العناصر القتالية والثقافية كانت تنتقل بين الطرفين على الرغم من استمرار الحرب (أيالون، 1951، ص97).

كما كانت هناك مشتركات واضحة في ثقافة الفروسية، فقد انتمى المماليك والمغول إلى فضاء عسكري أوسع عرف الخيل والرمي والحركة السريعة والانضباط السهبي، ولذلك كان الصراع بينهما، في جانب منه، منافسة بين تقاليد قتالية متقاربة استطاع المماليك إعادة تنظيمها داخل دولة مركزية مختلفة، ويعطي هذا المعنى عمقاً أكبر لعبارة أبي شامة عن هزيمة التتار «بأبناء جنسهم من الترك» (أولسن، 2001، ص19).

وهكذا لم تلغ عين جالوت صورة المحارب المغولي القوي، وإنما أعادت توزيع معناها، فقد أصبح بقاؤه خطراً ضرورياً لبقاء قيمة الانتصار عليه، وفي الوقت نفسه حولت الخبرة العسكرية المتراكمة المغول من قوة تثير الرعب المطلق إلى خصم معروف يمكن دراسة حركته ومواجهته، ومن هذه المنطقة الوسيطة بين الخوف والمعرفة بدأت الأسطرة السياسية تنمو بصورة أوضح.

المبحث الثاني
من الخصم التاريخي إلى الأسطرة السياسية والذاكراتية

مع امتداد الحرب المملوكية الإيلخانية إلى أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الهجريين، لم تعد صورة المحارب المغولي مرتبطة فقط بذكريات هولاكو وعين جالوت، فقد أسلم بعض حكام الإيلخانية، وتوسعت العلاقات الدبلوماسية والتجارية، وفي الوقت نفسه استمرت محاولات السيطرة على الشام، ثم جاءت هزيمة المماليك في وادي الخزندار لتعيد الخوف، قبل أن يمنحهم انتصار شقحب فرصة جديدة لتأكيد قدرتهم على الدفاع، وبذلك أصبحت صورة المغولي نتيجة ذاكرة متراكمة تتداخل فيها التجربة المباشرة بالماضي السياسي للدولة.

المطلب الأول: غازان ووادي الخزندار وشقحب وإعادة إنتاج صورة الخطر

أولاً: إسلام غازان وأزمة تعريف العدو

أحدث اعتناق غازان الإسلام سنة 694هـ تحولاً مهماً في بنية الصراع، لأن المماليك وجدوا أنفسهم أمام خصم يعلن الدين نفسه الذي يعلنه سلطانهم، بينما استمرت المنافسة على

الشام دون تغيير جوهري، ومن هنا لم تعد الثنائية القديمة بين سلطان مسلم وإيلخان غير مسلم كافية لتفسير الحرب، واضطر الخطاب إلى البحث عن عناصر أخرى لتحديد شرعية المواجهة (أميتاي-بريس، 1996، ص6).

ولهذا أخذت المصادر والمجادلات السياسية تركز على استمرار الغزو، وسلوك الجيش، والتقاليد المغولية، ومسألة الاحتكام إلى الياسا، وبذلك أصبح المحارب المغولي ممكناً أن يوصف بالعدوان حتى وهو مسلم، لأن معيار الحكم انتقل من الهوية الدينية المجردة إلى الممارسة السياسية والعسكرية، وهو تحول يكشف مرونة الخطاب المملوكي وقدرته على إعادة تعريف الخصم (برودبريدج، 2008، ص78).

أصبح الصراع المملوكي–الإيلخاني أكثر تعقيداً بعد دخول غازان في الإسلام، إذ لم تعد المواجهة قائمة على اختلاف الانتماء الديني بين الطرفين، وإنما ارتبطت بصورة أكبر بالتنافس على السيطرة على بلاد الشام وحماية مناطق النفوذ التابعة لكل دولة، وتكشف الروايات التاريخية العربية أن المماليك تعاملوا مع تقدم جيش غازان بوصفه تهديداً مباشراً لسلطتهم في الشام؛ فقد تحرك السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالعساكر المصرية والشامية من دمشق باتجاه حمص لمواجهة القوات الإيلخانية ودفعها عن البلاد، وهو ما يعكس البعد السياسي والعسكري الواضح للصراع، إلى جانب ما أحاط به من اعتبارات دينية واجتماعية (النويري، ج31، ص384).

وفي الوقت نفسه سعى غازان إلى تأكيد موقعه بوصفه حاكماً مسلماً، وإلى توظيف هذا الانتماء في خطابه السياسي تجاه المماليك؛ وتظهر المراسلات التي نقلتها المصادر العربية أن رسله قدموا إلى السلطان الناصر محمد حاملين خطاباً يدعو إلى الصلح و«اتفاق الكلمة»، كما صيغ كتاب غازان بلغة تؤكد انتسابه إلى الإسلام و«الملة المحمدية»، ويشير ذلك إلى أن النزاع تجاوز حدود المواجهة العسكرية ليصبح أيضاً تنافساً بين سلطتين مسلمتين على النفوذ والسيادة والشرعية السياسية في المنطقة، ولا سيما في بلاد الشام (المقريزي، 1997، ص915).

ثانياً: وادي الخزندار سنة 699هـ وعودة الرعب

مثلت هزيمة المماليك في وادي الخزندار سنة 699هـ صدمة حقيقية للثقة التي بنتها الانتصارات السابقة، فقد تمكن جيش غازان من التقدم إلى الشام، ووصلت نتائج الهزيمة إلى دمشق، فعادت أجواء القلق والفرار والخوف من نهب الممتلكات، وبذلك ظهر أن عين جالوت وحمص لم تكونا ضماناً دائماً لمنع الاختراق المغولي (المقريزي، 1997، ص337).

وفي هذه اللحظة عاد المحارب المغولي من سجل التاريخ إلى واقع الناس المباشر، ولم يعد خصماً تروى أخبار هزيمته القديمة، بل قوة موجودة بالقرب من المدن، ومن هنا استُعيدت مفردات الاضطراب والجفل والنهب، إلا أن المجتمع في هذه المرة كان يحمل أيضاً ذاكرة مغايرة، فهو يعرف أن المغول يمكن أن يُهزموا وأن دخولهم الشام لا يعني بالضرورة زوال الدولة المملوكية (ابن الدواداري، 1971، ص12).

وتكشف هذه الواقعة عن الطبيعة غير الخطية للصورة، إذ تتغير لهجة المصادر بتغير نتيجة المواجهة، فعندما يتقدم المغول تتصاعد مفردات الرعب والقوة، وعندما ينهزمون تتقدم ألفاظ الانكسار والفرار، ولذلك لم ينتقل المحارب المغولي مرة واحدة ونهائياً من «الوحش» إلى «الأسطورة»، بل كانت الصورة تعاد صياغتها مع كل أزمة جديدة (اليونيني، 1954، ص234).

كما أن الخوف لم يكن حكراً على المؤسسة العسكرية، فقد كان السكان جزءاً من التجربة، وتأثرت حياتهم بالشائعات وارتفاع الأسعار واضطراب الطرق وإمكان النزوح، وهذه الأخبار تكشف الجانب الإنساني للصورة، فالمحارب المغولي يُعرف أحياناً من خلال الأثر الذي يتركه في النفوس قبل أن يظهر في ميدان القتال، وهو جانب مهم في فهم استمرار الرهبة عبر أجيال (غو، 1998، ص91).

ثالثاً: شقحب سنة 702هـ واستعادة الثقة

عندما عادت القوات المغولية لتهديد الشام سنة 702هـ كان الخوف لا يزال حاضراً بقوة، ويصور ابن كثير حالة دمشق بقوله: «قلق الناس قلقاً عظيماً، وخافوا خوفاً شديداً»، وهي شهادة تدل على أن عقود الصراع لم تمح هيبة العدو من النفوس، وأن مجرد اقتراب الجيش المغولي كان كافياً لإعادة تنشيط ذاكرة الغزوات السابقة (ابن كثير، 1998، ص23).

غير أن الرواية نفسها تسجل تغيراً مهماً عند وصول القوات المملوكية، إذ يقول ابن كثير: «فقويت القلوب، واطمأن كثير من الناس»، ومن اللافت أن الخوف والطمأنينة يردان في سياق واحد، فيكشفان عن توازن جديد في الوعي؛ فالمغول ما زالوا مخيفين، إلا أن الدولة المملوكية أصبحت مؤسسة يستطيع وجود جيشها أن يخفف من وقع ذلك الخوف (ابن كثير، 1998، ص23).

كما أن شرعية القتال أصبحت موضوعاً يحتاج إلى تفسير، وقد نقل ابن كثير قوله في المغول: «هؤلاء من جنس الخوارج»، وهي عبارة توضح كيف أُعيد وضع الخصم المسلم داخل إطار فقهي يسمح بمقاومته، وهنا يظهر مقدار التحول الذي طرأ على صورة المحارب المغولي منذ أيام هولاكو، فقد أصبح الخصم الآن أكثر تعقيداً من الناحية الدينية والسياسية (ابن كثير، 1998، ص24).

وانتهت المواجهة في شقحب لصالح المماليك، فعادت الثقة التي اهتزت بعد وادي الخزندار، ولم يكن النصر مجرد نتيجة عسكرية، بل اكتسب قيمة ذاكراتية لأنه أثبت قدرة السلطنة على التعافي بعد هزيمتها السابقة، وأعاد ربط صورة الجيش المملوكي بوظيفة حماية الشام من الغزوات القادمة من الشرق (بيبرس المنصوري، 1998، ص365).

وفي هذه المرحلة أصبح المغول معروفين بدرجة أكبر من الناحية العسكرية، فقد تراكمت الخبرة بأساليب تحركهم ومعسكراتهم وتكتيكاتهم، ولم يعودوا قوة غامضة بالمعنى الذي كانت عليه في النصف الأول من القرن السابع، ومع ذلك بقيت الرهبة قائمة، فاجتمعت المعرفة الواقعية بالخصم مع الخوف الموروث منه داخل الذاكرة نفسها (أميتاي، 2013، ص106).

وتبين أحداث غازان وشقحب أن أسطرة المحارب المغولي لم تنشأ من الانتصار المتواصل، بل من التناوب بين الخوف والنجاة والهزيمة والانتصار، فاستمرار قدرة المغول على العودة إلى الشام منع صورتهم من التحول إلى ذكرى بعيدة، في حين جعل نجاح المماليك المتكرر في ردهم من تلك المواجهات مادة دائمة لبناء شرعية الدولة وبطولة جيشها.

المطلب الثاني: آليات الأسطرة في الكتابة التاريخية المملوكية

أولاً: تضخيم الخصم وتعظيم الانتصار

تبدأ الأسطرة عندما تتجاوز الواقعة زمن حدوثها وتتحول إلى نموذج يستدعى لفهم تاريخ الدولة، وقد حدث ذلك بصورة واضحة مع عين جالوت، فالمؤرخون المتأخرون لم يكتفوا بوضع المعركة في أخبار سنة 658هـ، بل جعلوها محطة كبرى في مسار السلطنة، ومن ثم اكتسبت بمرور الزمن دلالات أوسع من نتائجها العسكرية المباشرة (أميتاي، 2003، ص108).

وكانت قوة المغول عاملاً مساعداً في هذه العملية، فالخصم الذي أسقط بغداد واجتاح الشام يرفع، بحجم إنجازاته السابقة، قيمة من يهزمه، ولذلك لم يكن من مصلحة الذاكرة المملوكية أن تصوره جيشاً ضعيفاً، بل كان الاحتفاظ بسمعته القتالية يخدم السردية البطولية بصورة أكثر فاعلية (هيرشلر، 2006، ص44).

وتظهر هذه الآلية أيضاً في الأرقام التي تنسبها المصادر إلى الجيوش والقتلى، فكثرة الأعداد قد تؤدي وظيفة بلاغية إلى جانب معناها الإخباري، إذ يجعل تضخيم جيش الخصم الانتصار عليه أكثر عظمة، بينما تجعل كثرة الضحايا الهزيمة أكثر مأساوية، ولهذا يجب التعامل مع الأرقام الحربية في المصادر الوسيطة بحذر، وعدم فصلها عن وظيفتها داخل النص (ليتل، 1970، ص51).

وعلى مستوى الشخصيات، كانت صورة كتبغا نموذجاً مناسباً للأسطرة، إذ اجتمعت فيها القيادة والشجاعة والخطورة ثم النهاية الدرامية في عين جالوت، وهكذا تحول سقوط قائد محدد إلى رمز لانكسار الجيش المغولي كله، بينما أصبحت قوته الشخصية جزءاً من السرد الذي يعظم من شأن الذين نجحوا في إسقاطه (أميتاي، 2007، ص232).

ثانياً: ثنائية الوحش والبطل

تقوم أجزاء واسعة من الرواية المملوكية على تقابل بين المحارب المغولي الذي ارتبط بالخراب والسلطان أو الأمير الذي يظهر مدافعاً عن البلاد، وهي ثنائية تمنح الحرب معنى أخلاقياً وسياسياً يتجاوز الصراع على الأرض، وقد ساعدت هذه الثنائية في بناء ذاكرة للدولة باعتبارها قوة حماية في مواجهة تهديد خارجي واسع (إروين، 1986، ص49).

ومع ذلك لم تخلُ المصادر من الاعتراف ببعض صفات الفروسية لدى الخصم، فالقائد المغولي قد يكون مداناً في أفعاله، لكنه يوصف بالشجاعة والثبات في القتال، وتمنع هذه المساحة الصورة من التحول إلى رسم سطحي للعدو، كما تجعل البطولة المملوكية أكثر إقناعاً، لأن انتصارها يقع على خصم قادر لا على جيش ضعيف (ماثيوز، 2021، ص177).

كذلك لا يمكن تجاهل التشابهات العسكرية بين المماليك والمغول، فقد اشترك الطرفان في كثير من تقاليد الفروسية والرمي والتنظيم السهبي، ومن ثم فإن البطولة المملوكية لم تُبن على رفض تام للخصائص القتالية التي يمثلها المغولي، بل على منافسته داخل المجال نفسه، ثم إثبات قدرة الدولة على تنظيم تلك التقاليد في صورة أكثر فاعلية (أولسن، 2001، ص24).

وتظهر دلالة ذلك مرة أخرى في شخصية كتبغا، إذ لم يكن تحويله إلى جبان يخدم الرواية المملوكية، بينما يسمح الاعتراف بثباته بتعظيم اللحظة التي انهزم فيها، وعلى هذا النحو تتحول شجاعة العدو نفسها إلى عنصر في صناعة بطولة المنتصر، فتتجاور صورتا الخصم والبطل داخل بناء سردي واحد (أميتاي، 1992، ص136).

ثالثاً: اختلاف الصورة باختلاف الموقع السياسي

تكشف علاقة المماليك بالقبيلة الذهبية أن الهوية المغولية لم تكن كافية وحدها لتحديد صورة المحارب، فقد دخل بيبرس في تحالفات واتصالات مع بركة خان ضد هولاكو، وأصبح من الممكن أن يظهر المغولي حليفاً في مواجهة مغولي آخر، وهذه الحقيقة تقوّض أي قراءة تعتبر الصراع مواجهة عرقية بسيطة بين المماليك والمغول (برودبريدج، 2008، ص48).

وكان إسلام بركة خان عنصراً مساعداً في تقريب صورته، لكن المصلحة السياسية أدت دوراً لا يقل أهمية، فقد استفادت السلطنة من الضغط الذي مارسته القبيلة الذهبية على الإيلخانيين من الشمال، بينما وجد بركة في المماليك حليفاً ضد خصومه، وبذلك تشكل خطاب سياسي مختلف عن الخطاب المستخدم عند وصف الجيوش التي تغزو بلاد الشام (ابن عبد الظاهر، 1976، ص211).

أما الوافدية فتكشف بصورة أوضح كيف يمكن للصورة أن تتغير على مستوى الفرد، فالمقاتل القادم من المجال المغولي قد يدخل السلطنة ويُكرم وينضم إلى الجيش، فيصبح جزءاً من المؤسسة التي كانت تحارب قومه من قبل، وعندئذ يفقد الأصل المغولي وظيفته بوصفه علامة عداء، ويصبح مجرد عنصر من عناصر السيرة الشخصية (أميتاي، 2008، ص131).

ولا يعني ذلك أن الأصول كانت تُنسى كلياً، فقد استمرت كتب التراجم في ذكرها، إلا أن ذكر الأصل لم يمنع الاندماج السياسي والاجتماعي، وهذا يوضح أن المجتمع المملوكي كان أكثر مرونة من الصورة التي قد توحي بها نصوص الحرب، وأن العداء للإيلخانيين لم يكن عداوة مغلقة لكل من ينتمي إلى أصل مغولي (فان دن بنت، 2020، ص211).

رابعاً: الزمن وإعادة إنتاج الحدث

يتغير الحدث عندما ينتقل من شهادة المؤرخ القريب إلى ذاكرة المؤرخ المتأخر، لأن الأخير يملك شبكة من الروايات السابقة ويكتب من موقع تاريخي مختلف، وهذا ما نجده عند المقريزي والعيني وابن تغري بردي، حيث لم تعد عين جالوت واقعة معاصرة، بل أصبحت جزءاً من تاريخ طويل يمكن من خلاله تفسير نشأة السلطنة ومكانتها (إروين، 2008، ص164).

ويظهر ذلك بوضوح في نقل العيني عن أبي شامة، فقد بقيت عبارة «كسروا وهلكوا بأبناء جنسهم» حاضرة عبر سلسلة من النقل التاريخي، وهو ما يعني أن أجزاء بعينها من الرواية كانت أكثر قابلية للبقاء لأنها تلخص معنى الحدث في صورة موجزة وقوية (العيني، 2010، ص249).

كما يؤدي مرور الزمن إلى تثبيت شخصيات محددة في مركز المشهد، فيغدو قطز ممثلاً للحاكم المدافع، وكتبغا ممثلاً للجيش المغولي، بينما تتحول المواجهة بينهما إلى اختزال لقضية أكبر من الفردين، وهذه إحدى سمات الأسطرة التاريخية، حيث تصير الشخصية رمزاً لمسار سياسي كامل (المقريزي، 1997، ص527).

ولا تعني الأسطرة هنا اختلاق عين جالوت أو تغيير نتيجتها، بل تراكم الدلالات فوق الحدث حتى يصبح أكثر من مجرد معركة، فكل جيل يعيد وضعها داخل أسئلته السياسية وذاكرته عن الدولة، وبذلك أصبحت المعركة أكبر في الوعي التاريخي من زمنها العسكري المحدود (جاكسون، 2005، ص169).

ومن هذا المنظور لم يكن المحارب المغولي خارج عملية بناء الهوية المملوكية، بل أسهم في تشكيلها من موقع الخصم، فقد احتاجت الدولة إلى عدو قوي كي تجعل الدفاع عنه محوراً من محاور مجدها، واحتاجت البطولة المملوكية إلى خصم يملك ما يكفي من القوة حتى يكون الانتصار عليه جديراً بالتذكر، ولذلك تبدو أسطرة المغولي وأسْطرة المملوكي عمليتين متداخلتين.

المطلب الثالث: تيمور سنة 803هـ وعودة صورة المحارب المغولي الأسطوري

أولاً: تيمور في أفق الذاكرة المملوكية

عندما ظهر خطر تيمور في أواخر القرن الثامن الهجري كانت الإيلخانية قد زالت منذ عقود، ولم يكن تيمور وريثاً سياسياً مباشراً لهولاكو وغازان، وقد وجد المجتمع المملوكي في تجربته السابقة مع المغول قالباً جاهزاً لفهم قوة عسكرية كبرى قادمة من الشرق، لا سيما أن مشروع تيمور استند إلى جانب من الميراث السياسي والعسكري الجنكيزي (مانز، 1989، ص14).

وكان تيمور مسلماً، الأمر الذي يجعل المقارنة بهولاكو غير مطابقة من الناحية الدينية، إلا أن صورة الفاتح الشرقي الذي تتحرك معه جيوش ضخمة وتنهار أمامه المدن أعادت

إلى الذاكرة كثيراً من عناصر الصورة المغولية القديمة، وبذلك تظهر قدرة الذاكرة على الاحتفاظ بالملامح التي تناسب التجربة الجديدة، ولو اختلفت الهوية السياسية والدينية للقائد (جاكسون، 2017، ص439).

وقد كان وصول أخبار حملات تيمور كافياً لإثارة الخوف قبل دخوله بلاد الشام، لأن السكان لم يتعاملوا مع الخطر بوصفه حدثاً مجهولاً، بل قرؤوه من خلال ذاكرة جماعية تعرف معنى الغزو القادم من الشرق، ومن هنا تضاعف أثر الشائعات وأخبار سقوط المدن السابقة أمام قواته (ابن قاضي شهبة، 1997، ص48).

وعند سنة 803هـ كانت السلطنة المملوكية قد أصبحت دولة ذات تاريخ طويل في تقديم نفسها بوصفها حامية للشام، ولذلك حمل وصول تيمور إلى دمشق معنى خاصاً، فقد وضع ذاكرة عين جالوت وشقحب أمام اختبار مؤلم، وأثار سؤالاً حول قدرة الدولة التي صنعت جانباً من مجدها في صد المغول على منع تكرار مشهد الغزو (جاكسون، 2024، ص116).

ثانياً: حلب ودمشق واستعادة لغة الخراب

أعاد اجتياح حلب ودمشق مفردات القتل والنهب والحريق والأسر إلى مركز الرواية، ولم تكن هذه المرة مجرد أخبار موروثة، فقد عاش بعض المؤرخين نتائج الحملة بصورة مباشرة، ومن أبرزهم ابن عربشاه، الذي حملته أحداث الغزو صغيراً إلى مناطق خاضعة لتيمور، ثم ظهرت آثار تجربته لاحقاً في أسلوبه الحاد عند وصف الفاتح (مانز، 1989، ص4).

ويصور ابن عربشاه أثر الخوف على الناس بقوله: «أبدانهم راجفة، وقلوبهم واجفة، وأصواتهم خافتة»، وهي عبارة شديدة الإنسانية لأنها تنقل التركيز من حركة الجيش إلى أجساد السكان ونفوسهم، فالخوف هنا ليس مفهوماً سياسياً مجرداً، بل تجربة جسدية ظاهرة، وهو ما يعيد إلى الأذهان صورة الرعب التي صاحبت أخبار الغزوات المغولية الأولى (ابن عربشاه، 1986، ص155).

ثم يضيف ابن عربشاه أن «عمت هيبته الأرجاء والأطراف»، فتظهر الهيبة باعتبارها جزءاً من القوة العسكرية، ولا تختلف هذه الآلية كثيراً عن السمعة التي رافقت جيوش المغول في القرن السابع، إذ يصبح نجاح الفاتح السابق سلاحاً نفسياً في حملته التالية، ويبدأ أثره قبل دخول الميدان (ابن عربشاه، 1986، ص155).

غير أن ابن عربشاه لا يكتب بطريقة المؤرخ الحولي وحدها، بل يحول تيمور إلى شخصية أدبية تتراكم حولها صفات الدهاء والقسوة والحيلة والتقلب، ويستخدم السجع والمفارقة والصور البلاغية، الأمر الذي يجعل «عجائب المقدور» مصدراً تاريخياً وأدبياً في آن واحد، ومن ثم فإن صورة تيمور عنده مثال واضح على انتقال المحارب من الواقع العسكري إلى الأسطرة الأدبية (هيرشلر، 2006، ص173).

أما ابن قاضي شهبة فيقدم مادة أقرب إلى إيقاع الحوادث اليومية في دمشق، وتستحوذ سنة 803هـ على مساحة واسعة من أخباره، بما يعكس الأثر الذي تركته الحملة في ذاكرة المدينة، فالغزو لم يكن واقعة حدودية، وإنما تجربة مست مركزاً من أهم مراكز الحياة الدينية والعلمية والسياسية في السلطنة (ابن قاضي شهبة، 1997، ص92).

ثالثاً: اكتمال الدورة بين الوحشية والأسطرة

تبدو المقارنة بين سنتي 658 و803هـ شديدة الدلالة، ففي الأولى كان أهل الشام ينتظرون قوات مغولية سبقتها أخبار بغداد وحلب، وفي الثانية كانوا ينتظرون تيمور وقد سبقته أخبار مدن اجتاحها، وبين التاريخين قرابة قرن ونصف من الحروب والتحالفات والمراسلات والاندماج البشري، ومع ذلك بقي نموذج «الخطر القادم من الشرق» قابلاً للاستدعاء (جاكسون، 2024، ص121).

ولم تكن الذاكرة قد بقيت جامدة، فالمجتمع المملوكي عرف خلال تلك المدة حكاماً مغولاً مسلمين، وتجاراً وعلماء وأمراء من أصول مغولية، كما عرف الهدن والعلاقات الدبلوماسية مع العالم المغولي، إلا أن لحظة الغزو أعادت اختيار بعض العناصر القديمة، ولا سيما السرعة والبطش والتهديد الواسع للعمران (جاكسون، 2017، ص447).

وفي تيمور بلغت الأسطرة مستوى مختلفاً عن كتبغا، لأن الأخير كان قائداً تابعاً لهولاكو، أما تيمور فكان صاحب مشروع إمبراطوري وشخصية مركزية في دولته، ولذلك أمكن للنصوص أن تجمع في شخصه صورة الجيش والحاكم والفاتح، وأن تنسب إليه صفات الدهاء والشجاعة والقسوة والمكر بصورة جعلته أقرب إلى الشخصية التاريخية الأسطورية (مانز، 1989، ص18).

كما أعاد اجتياح سنة 803هـ سؤال الهوية المملوكية إلى الواجهة، فالدولة التي كانت تستحضر عين جالوت بوصفها لحظة إنقاذ وجدت نفسها عاجزة عن منع تيمور من الوصول إلى دمشق، ومن ثم لم تعد الذاكرة البطولية وحدها كافية، بل

كان عليها استيعاب تجربة جديدة من الضعف والخسارة والخراب (ابن عربشاه، 1986، ص167).

وهكذا تكشف نهاية الفترة أن العلاقة بين الوحشية والأسطرة لم تكن انتقالاً في اتجاه واحد، بل حركة دائرية، فالمحارب المغولي بدأ قوة تثير الرعب، ثم صار خصماً تصنع هزيمته البطولة، ثم أعادت انتصارات المغول المؤقتة إليه جانباً من صورته الأولى، وجاء تيمور ليجمع في شخصه بين الفاتح المخيف والشخصية التي تضخمها الذاكرة.

وتبدو سنة 803هـ خاتمة منطقية لهذا المسار، لأن الخوف لم يختف بعد قرن ونصف من عين جالوت، كما أن الأسطورة لم تكن نقيضاً للخوف، بل كان كل منهما يغذي الآخر؛ فشهرة المحارب تزيد رهبة لقائه، والانتصار عليه يمنح المنتصر مكانة أكبر، أما هزيمة المجتمع أمامه فتعيد إنتاج صورة الوحشية وتضيف إليها طبقة جديدة من الذاكرة.

الخاتمة

تناول البحث صورة المحارب المغولي في المصادر المملوكية منذ عين جالوت سنة 658هـ حتى اجتياح تيمور بلاد الشام سنة 803هـ، واتضح أن هذه الصورة لم تكن مرآة بسيطة للوقائع العسكرية، بل نتاجاً متحركاً لتقاطع الحرب والذاكرة السياسية وبناء الشرعية وتجربة السكان وأساليب المؤرخين في إعادة إنتاج الماضي، ومن ثم فإن المحارب المغولي لم يحتفظ بالمعنى نفسه طوال المدة المدروسة، بل تغيرت صورته بتغير نتائج الحرب، وموقع الجماعات المغولية من السلطنة، والمسافة الزمنية بين الحدث والمؤرخ.

وفي المرحلة الأولى غلبت صورة العدو الذي تسبقه أخبار الخراب والقتل وسقوط المدن، ثم أحدثت عين جالوت تغيراً عميقاً عندما أثبتت أن القوة المغولية قابلة للهزيمة، ومع ذلك لم تتخل المصادر عن وصف المغول بالشدة والبأس، لأن قوة الخصم أصبحت عنصراً مهماً في تعظيم بطولة قطز وبيبرس وغيرهما، فانتقلت الصورة من رهبة القوة المطلقة إلى رهبة الخصم الذي يمنح الانتصار عليه مجداً استثنائياً.

كما تبين أن التحول لم يكن خطياً، فقد أعادت هزيمة وادي الخزندار وغزو غازان للشام لغة الخوف، قبل أن يعيد انتصار شقحب تثبيت الثقة بالدولة المملوكية، ثم جاء تيمور سنة 803هـ ليعيد مشاهد القتل والفرار والخراب إلى الواجهة، ولكن داخل ذاكرة سياسية أصبحت تحمل أكثر من قرن من التجارب السابقة مع المغول.

وكشفت الدراسة أيضاً أن الأصل المغولي لم يكن محدداً وحيداً للصورة، إذ اختلفت طريقة تقديم الإيلخانيين المعادين عن القبيلة الذهبية المتحالفة، كما أمكن للوافدية من ذوي الأصل المغولي أن يندمجوا في الجيش والمجتمع المملوكيين، ومن ثم فإن خطاب الوحشية لم يكن حكماً عرقياً مطلقاً، بل كان مرتبطاً على نحو كبير بالولاء السياسي والعلاقة العسكرية والدينية مع السلطنة.

وبذلك يمكن القول إن صورة المحارب المغولي تحركت بين واقع الحرب وذاكرة الحرب، فقد كان العنف الذي سجلته المصادر جزءاً من خبرة تاريخية حقيقية، غير أن إعادة روايته عبر الأجيال أدخلته في عملية أسطرة جعلت المغولي عنصراً ضرورياً في بناء صورة الدولة المملوكية نفسها، إذ لا يمكن فهم بطولة المدافع من دون فهم القوة التي نُسبت إلى خصمه.

أولا: النتائج

1. كشفت الدراسة أن صورة المحارب المغولي سنة 658هـ كانت امتداداً لذاكرة سابقة تشكلت من أخبار اجتياحات خراسان والعراق وسقوط بغداد ودخول الشام، ولذلك دخل المماليك عين جالوت وهم يواجهون خصماً تسبقه سمعة عسكرية ونفسية واسعة.
2. أثبتت عين جالوت أن أهم تحول في الصورة لم يكن اختفاء قوة المغول، وإنما سقوط الاعتقاد بعدم إمكان هزيمتهم، فأصبح المغولي بعد سنة 658هـ خصماً شديداً يمكن مع ذلك كسره ومطاردته وقتل قادته.
3. أسهم خطاب الوحشية في بناء الشرعية المملوكية، إذ مكّن السلاطين من تقديم حكمهم بوصفه قوة تحمي مصر والشام والمجال الإسلامي من عدو ارتبط في الذاكرة بسقوط المدن والخلافة.
4. لم تنتج المصادر صورة إثنية موحدة للمغول، فقد اختلفت صورة إيلخانيي إيران عن القبيلة الذهبية، كما تغيرت صورة المغولي عند انتقاله إلى خدمة السلطنة، بما يثبت أهمية الولاء السياسي في بناء الصورة.
5. أظهرت وقائع وادي الخزندار وشقحب أن صورة المحارب المغولي لم تتطور في خط مستقيم، بل كانت تتغير مع ميزان الحرب، فتعود لغة الرعب عند الهزيمة، بينما تتحول قوة الخصم إلى مادة للبطولة عند الانتصار.
6. قامت أسطرة المحارب المغولي بالتوازي مع أسطرة المحارب المملوكي، إذ احتاجت الذاكرة البطولية إلى خصم قوي، ولذلك لم تتردد بعض المصادر في الاحتفاظ للمغول بصفات الشجاعة والثبات والتنظيم حتى في سياق الحديث عن هزيمتهم.

7. أثبت اجتياح تيمور سنة 803هـ بقاء نموذج الخطر المغولي في الذاكرة المملوكية، إلا أنه أصبح في نهاية المدة أكثر تعقيداً، إذ جمع بين الخوف الموروث والخبرة السياسية الطويلة والأسطرة الأدبية لشخصية الفاتح.

ثانياً: التوصيات

1. توسيع دراسة المصطلحات المستخدمة في وصف المغول داخل المصادر المملوكية، ولا سيما ألفاظ «التتار» و«المغول» و«الوافدية» والشجاعة والهيبة والخراب، بما يسمح برصد تغير الصورة بين القرنين السابع والتاسع الهجريين.

2. مقارنة الرواية المملوكية بالمصادر الإيلخانية الفارسية والأرمنية والمغولية، بهدف تحديد ما يعود إلى الخبرة المشتركة بالحرب، وما صنعه الخطاب المملوكي في سياق بناء شرعية الدولة.

3. توسيع الدراسة لتشمل المراسلات السلطانية والفنون والآثار والثقافة العسكرية، لأن صورة المحارب المغولي لم تتشكل في كتب التاريخ وحدها، بل كانت جزءاً من شبكة أوسع من التمثيلات السياسية والثقافية.

4. دراسة انتقال ذاكرة عين جالوت وشقحب وتيمور إلى الكتابة التاريخية العربية والعثمانية المتأخرة، للكشف عن كيفية تحول الذاكرة المملوكية المعاصرة إلى صورة ثقافية طويلة الأمد عن المغول والغزو القادم من الشرق.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر التاريخية

- ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد. (1965). الكامل في التاريخ. بيروت: دار صادر.
- ابن الدواداري، أبو بكر بن عبد الله. (1971). كنز الدرر وجامع الغرر. القاهرة: المعهد الألماني للآثار.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف. (1963). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. ج8. القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.
- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي. (1967–1976). إنباء الغمر بأبناء العمر. حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. (2000). كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر. بيروت: دار الفكر.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. (2004). التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً. بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن عبد الظاهر، محيي الدين عبد الله. (1961). تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور. تحقيق مراد كامل. القاهرة: وزارة الثقافة.
- ابن عبد الظاهر، محيي الدين عبد الله. (1976). الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر. تحقيق عبد العزيز الخويطر. الرياض.
- ابن عربشاه، أحمد بن محمد. (1986). عجائب المقدور في نوائب تيمور. بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبو بكر. (1997). تاريخ ابن قاضي شهبة. تحقيق عدنان درويش. دمشق: المعهد الفرنسي للدراسات العربية.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر. (1998). البداية والنهاية. تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي. القاهرة: دار هجر.
- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم. (1957–1977). مفرج الكروب في أخبار بني أيوب. تحقيق جمال الدين الشيال وآخرين. القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية.
- أبو الفداء، إسماعيل بن علي. (1997). المختصر في أخبار البشر. بيروت: دار الكتب العلمية.
- أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي. (1991). الذيل على الروضتين: تراجم رجال القرنين السادس والسابع. بيروت: دار الجيل.
- البرزالي، علم الدين القاسم بن محمد. (2006). المقتفي على كتاب الروضتين. تحقيق عمر عبد السلام تدمري. صيدا–بيروت: المكتبة العصرية.
- بيبرس المنصوري الدوادار. (1998). زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة. تحقيق دونالد ريتشاردز. بيروت: المعهد الألماني للأبحاث الشرقية.
- بيبرس المنصوري. (1987). التحفة الملوكية في الدولة التركية. تحقيق عبد الحميد صالح حمدان. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.
- الجزري، شمس الدين محمد بن إبراهيم. (1998). تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه. تحقيق عمر عبد السلام تدمري. بيروت: المكتبة العصرية.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد. (1985). دول الإسلام. تحقيق حسن إسماعيل مروة. بيروت: دار صادر.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد. (1998). تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. تحقيق عمر عبد السلام تدمري. بيروت: دار الكتاب العربي.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك. (2000). الوافي بالوفيات. تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- العمري، شهاب الدين أحمد بن فضل الله. (2010). مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. أبو ظبي: المجمع الثقافي.
- العيني، بدر الدين محمود بن أحمد. (2010). عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان. تحقيق محمد محمد أمين. القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية.
- القلقشندي، أحمد بن علي. (1987). صبح الأعشى في صناعة الإنشا. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. (1997). السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق محمد عبد القادر عطا، ج1. بيروت: دار الكتب العلمية.

- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب. (1423هـ). نهاية الأرب في فنون الأدب. ج31. القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية.
- اليافعي، عبد الله بن أسعد. (1997). مرآة الجنان وعبرة اليقظان. بيروت: دار الكتب العلمية.
- اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد. (1954). ذيل مرآة الزمان. حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية.

ثانياً: المراجع والدراسات الحديثة

- إروين، روبرت. (1986). الشرق الأوسط في العصور الوسطى: السلطنة المملوكية المبكرة، 1250–1382م. كاربونديل: مطبعة جامعة جنوب إلينوي.
- أميتاي، روفين. (1990). «في أعقاب عين جالوت: بدايات الحرب الباردة المملوكية الإيلخانية». مجلة المساق، العدد الثالث.
- أميتاي، روفين. (1992). «إعادة النظر في عين جالوت». مجلة التاريخ، العدد الثاني.
- أميتاي، روفين. (1992). «تصورات المماليك للتقارب المغولي الفرنجي». المجلة التاريخية للبحر المتوسط، المجلد السابع.
- أميتاي، روفين. (2003). «المقريزي مؤرخاً للسلطنة المملوكية المبكرة». مجلة دراسات المماليك، المجلد السابع.
- أميتاي، روفين. (2007). «ترجمة عربية لكتبغا، القائد المغولي المهزوم في عين جالوت». دراسات القدس في العربية والإسلام، المجلد الثالث والثلاثون.
- أميتاي، روفين. (2008). «المماليك من أصل مغولي ودورهم في الحياة السياسية المملوكية المبكرة». مجلة دراسات المماليك، المجلد الثاني عشر.
- أميتاي، روفين. (2013). الحرب المقدسة والتقارب: دراسات في العلاقات بين السلطنة المملوكية والإيلخانية المغولية، 1260–1335م. تورنهاوت: دار بريبولس.
- أميتاي-بريس، روفين. (1995). المغول والمماليك: الحرب المملوكية الإيلخانية، 1260–1281م. كامبردج: مطبعة جامعة كامبردج.
- أميتاي-بريس، روفين. (1996). «غازان والإسلام والتقاليد المغولية: رؤية من السلطنة المملوكية». نشرة كلية الدراسات الشرقية والأفريقية، المجلد التاسع والخمسون.
- برودبريدج، آن. (2008). الملكية والأيديولوجيا في العالمين الإسلامي والمغولي. كامبردج: مطبعة جامعة كامبردج.
- جاكسون، بيتر. (2005). المغول والغرب، 1221–1410م. هارلو: لونغمان.
- جاكسون، بيتر. (2017). المغول والعالم الإسلامي: من الفتح إلى التحول الديني. نيو هافن: مطبعة جامعة ييل.
- جاكسون، بيتر. (2024). «تأملات في غزو تيمور لبلاد الشام المملوكية». مجلة دراسات المماليك، المجلد السابع والعشرون.
- غو، لي. (1998). التأريخ السوري المملوكي المبكر: ذيل مرآة الزمان لليونيني. ليدن: بريل.
- فان دن بنت، يان. (2020). المغول في أعين المماليك: تمثيل الآخر الإثني في الشرق الأوسط في العصور الوسطى. أطروحة دكتوراه، جامعة أمستردام.
- ليتل، دونالد. (1970). مدخل إلى التأريخ المملوكي. فيسبادن: فرانز شتاينر.
- مانز، بياتريس فوربس. (1989). صعود تيمور وحكمه. كامبردج: مطبعة جامعة كامبردج.
- مورغان، ديفيد. (2007). المغول. الطبعة الثانية. أكسفورد: بلاكويل.
- نورثرب، ليندا. (1998). من مملوك إلى سلطان: مسيرة المنصور قلاوون وتوطيد الحكم المملوكي في مصر والشام. شتوتغارت: دار فرانز شتاينر.
- هولت، بيتر. (1986). عصر الحروب الصليبية: الشرق الأدنى من القرن الحادي عشر إلى سنة 1517م. لندن: لونغمان.
- هيرشلر، كونراد. (2006). التأريخ العربي في العصور الوسطى: المؤلفون بوصفهم فاعلين. لندن: روتليدج.